ضُيُوف البلاد

بقلم: فرانك أو كورْنَر (1931)
ترجمة: عبَّاد ديرانية

عندما يَحِلُّ المساء، كان الرجل الإنكليزي ضخم الجثّة - بيلشر - يمدّ ساقَيْه أمام المدفأة ويقول: "حسناً يا رفاق، ماذا الآن؟"، ونُجِيبُ عليه أنا أو نوبل بالقَوْل: "كما تشاء، أيّها الرفيق" (إذ نكونُ قد فهمنا مغزى نظراته الغريبة)، وعندها يُضيء الرجل الإنكليزي ضئيل الحَجْم - أوكينز - مصباحاً ويُوزّع أوراق اللَّعب. وبين الفينة والأخرى يُطِلّ جيريمياه دونوفان مساءً ليراقبنا ونحنُ نلعب، ويتحمَّسُ في مشاهدة أوكينز (الذي يلعبُ البطاقات مثل الأحمق) ويصيحُ به كما لو كان واحداً منّا قائلاً: "أنت أيّها الملعُون، لماذا لم تلعب بورقتك تلك؟". ولكن في معظم الأحيان، لم يَكُن جيريمياه أكثر من رجلٍ وقورٍ وهادئ، مثلُهُ في ذلك مثل الرجل الإنكليزي الضَّخم بيلشر، ولم يكُن أحدٌ منا يُكِنُّ له تقديراً سوى لبراعته في في خطِّ الأوراق والوثائق، ولو أنِّي أقسمُ أنَّه كان بطيئاً للغاية في خَطِّها. وكان يرتدي جيريمياه دوماً قُبَّعة قماشية صغيرة، وجزمتين طويلتين تُغطِّيَان معظم ساقيه العملاقتين، ونادراً ما كنتُ أرى يديه خارج جيبي بنطاله. وكان وجههُ يتخضَّبُ باللون الأحمر متى ما تحدَّثتَ إليه، وتراهُ يتمايلُ من الأمام إلى الوراء بينما يشغلُ عينيه بتأمُّل قدميه الكبيرتين. وقد كنتُ أتسلَّى جداً بالاستماع للكنته الريفيَّة القويَّة عندما يتحدَّث، فأنا من سُكَّان المدينة.

ولم أكُن، في هذا الوقت، قادراً على فهم المغزى من تواجدنا (أنا وزميلي نوبل) مع بيلشر وأوكينز على الإطلاق، فقد كان لديَّ آنذاك - ولا يزال لديَّ - إيمانٌ راسخٌ بأنَّك قادرٌ على أن تلقي بهذين الرجلين في أيّ بقعةٍ بين هذا المنزل وقرية كليرغالوي الإيرلندية، وستراهما يتأقلَمان ويندمجان كأنَّهُما إيرلنديَّان أصليَّان. فأنا لم أرَ، في سنوات حياتي القصيرة، رجلين يندمجان بحياة الأرياف الإيرلندية مثلهما.

وكُنَّا قد تسلَّمنا مسؤولية بيلشر وأوكينز عندما نُقِلا إلينا من الكتيبة الثانية، إذ شدَّدت الجيوش الإنكليزية - وقتها - جهودها في البحث عنهما. وقد أخذنا أنا ونوبل، لكوننا جنديَّين حديثي العهد، مهمة حراستهما على عاتقنا بقدرٍ كبيرٍ من المسؤولية، إلا أنَّنا شعرنا مثل أحمقين أمام أوكينز عندما أثبتَ لنا أنه يعرفُ الريف الإيرلندي مثلما نعرفهُ نحن. حيث قال لي ذات مرَّة: "أنتَ الفتى الذي يدعونه بونابرت؟ حسناً يا بونابرت، لقد سمعتُ أن ماري بريغيد أوكونيل كانت تسألُ عنك وتقولُ أنَّ في حوزتك زوجاً من جوارب أخيها". واستنتجنا، من كلام هذين الرجلين الإنكليزيَّين، أنَّهما حظيا بليالٍ مرحة في بلادنا مع فتيات القرية، ولأنَّهما رفيقان طيّبان فإنَّ زملائنا الإيرلنديّين اعتنوا بهما جيداً، ووجَّهُوا لهما الدعوات إلى جلساتهم وحفلاتهم. بل وقد أخبرني أوكينز أنَّهم علَّمُوه الرقص على أنغام أغنيات "أسوار ليميرك" و"حصار إينيس" و"أمواج توري"، ولم يأخذ سوى ليلة أو اثنتين ليتعلَّمها كلّها، إلا أنَّه - بطبيعة الحال - لم يَكُن قادراً على ردّ الجميل للإيرلنديّين، لأنهم لم يرحّبوا بالرقص على أنغام أغانٍ أجنبيَّة آنذاك.

وقد جاء بيلشر وأوكنز إلينا طائعَيْن وملتزمين كما ينبغي، رغم كلّ الحريَّات والتسهيلات التي مُنِحَت لهما عندما كانا بصحبة الكتيبة الثانية. ومع ذلك، لم تكد تمضِ الليلة الأولى على وجودهما معنا حتى توقَّفنا عن التظاهر بأنَّنا نكترثُ بما يعملانه. إذ لم يكُن بمقدورهما الهربُ بعيداً، حيث أنَّ لكنتهما الإنكليزية واضحة وملابسهما الغريبة تكشفهما بسهولة، ولا أعتقدُ - على المستوى الشخصيّ - أنَّهما فكرا بالهرب يوماً، بل كانا مرتاحَيْن تماماً بما آل إليه أمرهُما.

كان من الممتع جداً مراقبة كيفيَّة تعاطي بيلشر مع صاحبة المنزل الذي كنا مقيمين به. كانت عجوزاً سليطةً دائمة الصراخ والتوبيخ، حتى عندما تتعاملُ معنا نحن. ولكن قبل أن تحصل على فرصةٍ لتريَ طباعها الحادَّة لضَيْفينا الإنكليزيَّيْن، جعل بيلشر منها صديقته مدى الحياة. فعندما وصلنا إلى منزلها كانت منشغلةً بتقطيع الحطب، ولم يَكُن بيلشر قد جلسَ على مقعده لأكثر من عشر دقائق حتى نهض وقفزَ نحوها.

قال بيلشر لها بابتسامته الفريدة: "اسمح لي بمساعدتك يا مدام، اسمح لي رجاءً"، ومن ثمَّ اختطفَ البلطة من بين يديها، وظلَّت العجوزُ واقفةً في مكانها متسمِّرة ولا تدري ما تقول. ومن ثمَّ صِرْتَ ترى بيلشر - بين الحين والآخر - واقفاً عندَ قدميها ليُقدّم لها دلواً، أو سلَّة، أو حفنة من البذور، أو ما سوى ذلك. وكان نوبل يصفُهُ بأنَّه يترقَّبُ لحظة نهوض المرأة العجوز ليقفزَ أمامها ويجلبَ لها ما تريد من الماء السَّاخن أو أياً ما يَكُن. ولكنَّ بيلشر كان قليل الكلام جداً بالنسبة لحجمه الضَّخم (وهو أطولَ منِّي وطولي أنا يتجاوز مائة وخمسة وسبعين سنتيمتراً). وقد اعتدنا بعد فترةٍ على دخوله وخروجه بهدوءٍ من الغرفة، مثل الأشباح، دُون أن ينبسَ بكلمة واحدة. وقد استطعنا التعايُشَ مع الأمر لأنَّ أوكينز كان يتحدَّثُ بما يكفي نيابةً عنه، ولم نَكُن نسمعُ من بيلشر نفسه سوى عبارتي "اعذرني أيُّها الرفيق" و"أنتَ مُحقّ أيُّها الرفيق"، اللَّتين يتقوَّهُ بهما وساقاهُ ممدودتان أمامَ نيران المدفأة. وكانت متعته الوحيدة في الحياة هي اللَّعبَ بالبطاقات، وعليَّ القولُ أنَّه كان ماهراً فيها، ولعلَّهُ أفلسنا أنا ونوبل لولا وجود أوكينز، فأوكينز كان دائماً يخسرُ ماله لنا، وكان بيلشر هو من يعطيه المزيد من المال ليلعبَ به.

وكان السَّببُ في خسارة أوكينز المزمنة أنَّه لا يتوقَّفُ عن الكلام، ولعلَّ هذا - على ما أدركه الآن - سبب خسارتنا أنا ونوبل أيضاً. وقد اعتدنا على أن يخوضَ نوبل وأوكينز كلَّ ليلةٍ ملاسناتٍ طويلةً عن الأديان حتى حلول الصَّباح الباكر، إذ كان أوكينز يستفزّ نوبل (وهو أخٌ لقسّيس) بسيلٍ من الأسئلة الوجودية التي تُحيِّر أسقفاً عالماً بالمسيحية، وليزداد الطين بلَّة فإنَّ أوكينز، البذيء بطبيعته، لم يَكُن يتوانَى عن إظهار بذائته عندَ الخوض في المُقدَّسات، وعليَّ القول أني لم يسبق لي - خلال حياتي كُلّها - وأن قابلتُ رجلاً يتقنُ إقحام الألفاظ النابية في أسخف الموضوعات بمثل حاله. كان أوكينز الصَّغيرُ شاباً سيّء الخُلق بالفعل، وكان الجدالُ معه تجربة مرعبة! وهو لم يُكلّف نفسه عبء أتفه الأشغال في المنزل، وكان يحتاجُ دائماً إلى الثرثرة مع أحدهم، حتى إنَّه لو لم يجِد أحداً يثرثر لهُ وجدتهُ ينهالُ بالكلام على المرأة العجوز.

ويسعدني القول أنَّ العجوز كانت خير غريم يضعُ حداً له، ففي أحد الأيام حاولَ أوكينز أن يجعلها تشتكي من الله بسبب موجة القُحْط التي أصابَت الريف، إلا أنَّها أسكتتهُ عندما ألقت اللوم في القحط على الإله جوبيتر بلوفيوس (وهو إلهٌ لم نسمع به لا أنا ولا أوكينز من قبل، ولكن نوبل زعمَ أنَّ الوثنيين يؤمنون بأنه يتحكَّمُ بالأمطار بطريقةٍ ما). ومع ذلك لم يكد يأتي يومٌ آخر حتى أخذَ أوكينز يُكيل اللعنات على الرأسماليين لأنهم أشعلوا الحرب في ألمانيا، فوضعت المرأة العجوز دلوها المعدني بهدوءٍ وجعَّدت فمها الصغير وقالت: "سيد أوكينز، يمكنك أن تقول ما تشاءُ عن الحرب بألمانيا ظاناً أنَّك ستخدعُ امرأة عجوزاً جاهلةً مثلي، ولكنني أعرف جيداً ما الذي أشعلَ الحرب. فالذي أشعلها هو أن نبيلاً إيطالياً تجرَّأ على سرقة معبود وثنيّ من معبد في اليابان، وصدّقني يا عزيزي أوكينز، لن ينتظرك سوى العقاب والنَّدم لو عبثتَ مع الأرواح والآلهة الشريرة!". يا لها من عجوزٍ غريبة الأطوار!

***

جلسنا ذات مساء نحتسي الشاي معاً، فأضاء أوكينز المصباح، وشرعنا جميعاً في لعب البطاقات. وقد انضمَّ إلينا جيريمياه دونوفان أيضاً وجلس فترة ليراقبنا ونحنُ نلعب. وقد كان جيريماه رجلاً خجولاً قليلَ الكلام، ولكن لم يخفى عليَّ وقتها عدم حُبِّه للرفيقين الإنكليزيَّيْن اللذين بصحبتنا، وتفاجأتُ من أنّي لم أدرك الأمر من قبل. وعلى أيّ حال وكما جرت العادة، لم يحلّ المساءُ حتى انفجر نقاشٌ حادّ بين أوكينز ونوبل عن الرأسماليين والقساوسة المسيحيّين وغير ذلك من المواضيع.

قال أوكينز بنبرة غاضبة: "ما يفعله الرأسماليون هو أنَّهم يَرْشُون القساوسة بالمال ليحكوا لك قصصاً عن الحياة الأخرى، حتى لا تلاحظ أفعالهم الشنيعة في هذه الحياة!".
وأما نوبل فردَّ وقد فقد أعصابه: "هراءٌ يا رجل. الناس يؤمنون بالحياة الأخرى قبل أن تخترع الرأسمالية كلّها".
وكرَّر أوكينز هازئاً: "أوه، كانوا يؤمنون بها، أليس كذلك؟"، ثُمَّ وقف على قدميه وكأنَّه يلقي موعظة وقال: "تعني أن الناس كانوا يؤمنون دوماً بكلّ ما تؤمن أنتَ به، أليس كذلك؟ وما تؤمن أنتَ به هو أن الله خلق آدم، وأن آدم ولد سام، وأن سام خلفه الملك داود؟ وبتلك الحكاية الخيالية عن حواء وجنة عدنٍ وتفاحتها؟ حسنٌ إذاً، اسمعني أيّها الرفيق. إذا كنتَ

قادراً على أن تؤمنَ بأشياء سخيفة مثل هذه، فإنّي قادرٌ أيضاً على أن أؤمن بما أشاء من السخافات: وما أؤمنُ به هو أنَّ أول شيءٍ خلقه الله هو إنسان رأسمالي تافه مع سيارته الرولز رويز". ثُمّ استدار نحو بيلشر ليسأل: "هل أنا محقّ أيها الرفيق؟".

قال بيلشر بابتسامته المعتادة: "أنتَ محقّ أيها الرفيق"، ومن ثم تركَ مقعده على المائدة وذهب ليمدّ ساقيه أمام النار ويُمسِّد شاربه. وعندما لاحظتُ أن جيريمياه دونوفان شرعَ بمغادرة الغرفة، وبما أنَّ النقاش الحادّ عن الأديان لم يَكُن سينتهي بأي وقت قريب، قمتُ وتناولتُ قبعتي وتبعتُه. مشينا نحو القرية معاً لبعض الوقت، ومن ثمَّ توقف جيميرياه فجأة وأخذ يُغمغم ويتمتم ويتراقصُ - كما كانت عادته - من رأسه إلى أخمص قدميه، وأخيراً قال لي بأنَّ عليَّ أن أعود لأحرسَ السجينَيْن الإنكليزيَّيْن. ولأني تفاجأتُ كثيراً بهذا الكلام غير المُتوقَّع منهُ سألتُه لماذا يعتقد - بحقّ الجحيم - أنَّ السجينين يحتاجان لأيّ حراسة، وأخبرتُه بأنّي ونوبل ناقشنا الأمرَ من قبل، وبأنَّنا لا نكترثُ لهما، فنحنُ نفضّل أن نخرج للقتال على أن نحرس سجينين. ثُمّ سألتُه: "ما هي فائدة هذين الرجلين لنا بالضَّبْط؟".

فرمقني جيريمياه بنظرةٍ حادَّة وقال: "اعتقدتُ أنك تعرفُ أنَّنا نحتفظ بهما رهائن". سألتهُ مستفهماً: "رهائن؟". فأجاب بأسلوبه الخشن: "لدى الأعداء سجناء من رجالنا، وهم يُفكّرون الآن بقتلهم. وإذا قتلوا رجالنا فسنقتلُ رجليهما بالمثل، مثلما يستحقّان". سألتُه، وأنا بالكاد قادرٌ على أن أبدأ بالتفكير بهذا الاحتمال: "نقتلهما؟". فأجابني: "تماماً، سنقتلهما". فقلتُ له: "إذاً، ألم يَتبادر إليك أن عليك أن تخبرنا أنا ونوبل بهذا؟"، فسألني: "ماذا تعني؟". قلتُ له: "بما أنَّنا نحن المسؤولان عن حراستهما، فكانَ من المعقول أن تخبرنا بالأمر قبلاً - بطبيعة الحال". قال لي: "أولم يكُن لديكما من حسن التفكير ما يكفي لتدركاه بنفسيكما؟". قلتُ له: "لا يا جيميرياه دونوفان، لم يكن لدينا حسن التفكير. فكيفَ لنا أن نتوقَّع أمراً كهذا والرجلان يعيشان بيننا منذ كلّ هذه المُدّة؟". قال لي: "وما هو الفرق الذي تصنعهُ المُدّة؟ فرجالنا سجناء لدى الأعداء منذ كلّ هذه المدة أو أطول منها". قلتُ له: "بل إن المُدَّة تصنع فارقاً هائلاً". قال لي بحدّة: "وكيفَ ذلك؟"، ولكنّي لم أستطع أن أبرّر لهُ الفارق، لأني أصبحتُ متوتراً جداً على أن أتابع الكلام.

سألتُه: "ومتى ستسرّحوننا من هذه المهمَّة على أية حال؟". أجابني: "قد يكونُ ذلك الليلة، أو في الغد، أو فيما بعد غدٍ بأقصى الأحوال. لذا، لو كان بقاؤك في هذا المكان هو ما يزعجك، فلكَ أن تتوقَّع أن تنال حُريَّتك قريباً جداً".

لا يمكنني حتى الآن أن أشرح كمَّ الحزن الذي انتابني وأنا أعودُ أدراجي تعيساً إلى المنزل. وعندما دخلتُ من الباب كان النقاش عن الأديان لا زال مشتعلاً بين الرجلين: فأوكينز كان لا يزال متمسكاً برأيه بأنَّه لا توجد آخرة، بينما نوبل يردّ عليه ليقنعه - بأفضل ما يمكنه - بأنَّ ثمة حياة أخرى. ولكنّي وجدتُ أن أوكينز كان يسعى للفوز بالنقاش تماماً، فقد قال بابتسامته الوقحة: "أتعلم، أظنّ أنَّك لست أكثر إيماناً مني. فأنتَ تقول أنك تؤمن بالحياة الأخرى، لكنك لا تعرفُ عنها شيئاً أكثر ممَّا أعرفه أنا، وهو الذي لا يساوي شيئاً بالمرَّة. فما هي الجنة؟ أنتَ لا تعرف. أين هي الجنة؟ أنتَ لا تعرف. من يسكنُ الجنة؟ أنتَ لا تعرف. أنت لا تعرف شيئاً بالمرَّة! سأسألك مرَّة أخرى، هل يرتدي الملائكة جناحات؟".

قال نوبل: "حسنٌ جداً إذاً، الملائكة يرتدون أجنحة. هل أنتَ راضٍ الآن؟ كلّهم يرتدون أجنحة". فردَّ أوكينز: "من أين يحصلون على هذه الأجنحة إذاً؟ من يصنعها لهم؟ هل لديهم مصنعٌ للأجنحة؟ هل ثمَّة متجرٌ يدفعونَ فيه المال ليأخذوا أجنحتهم؟ أجبني على هذا".
قال نوبل: "أوه، أنتَ رجلٌ يستحيل النقاش معه. استمع إليَّ الآن..."، ومن ثمَّ انشغلا بجدالهما مرَّة أخرى.

وكان الوقت قد تجاوز منتصف الليل بفترةٍ طويلةٍ عندما أقفلنا على الرجلين الإنكليزيين باب غرفتهما، ومن ثمَّ خلدنا إلى أسرتنا. أخبرتُ نوبل - وأنا أطفئ ضوء الشمعة - بما قالهُ لي جيريمياه دونوفان ذلك المساء. استقبل نوبل النبأ بهدوءٍ تام. وبعد أن مضت علينا ساعةٌ كاملةٌ ونحنُ في السرير، سألني إذا ما كنتُ أظنّ أن علينا إخبار الرفيقين الإنكيزيَّين بالأمر. ولكوني فكَّرتُ بهذه النقطة (وبالكثير غيرها) مسبقاً فقد أجبتُه بالنفي، لأنه لا زال من المحتمل جداً أن لا يقتل الجنود الإنكليز سجنائنا، ولأن الكتيبة الثانية (التي أسرت هذين الرجلين في السابق والتي رافقتهما طويلاً وعرفتهما جيداً) لن

ترغبَ - على الأرجح - بأن يقتلا بهذه الطريقة. قال نوبل: "أظنّك محقاً، فسيكون من الفظيع أن نُثير قلق الرجلين من الآن". وردَّدتُ عليه: "لم يكن من المناسب من جيريمياه دونوفان نفسه أن يقول هذا الكلام على أيّ حال"، وأدركتُ من صمت نوبل أنه فهم مقصدي.

وهكذا قضيتُ ليلتي مستلقياً وأنا أُفكّر وأُفكّر، وأخذتُ أتخيلُ نفسي ومعي نوبل ونحنُ نحاول منع كتيبتنا من إطلاق النار على بيلشر وأوكينز، وسرت قشعريرة باردة فيَّ وأنا أتخيل هذا المشهد. فقد كنتُ أعرف أن ثمَّة رجالاً كثيرين في كتيبتنا لا يجرؤ المرء على مواجهتهم بدون أن يكونَ بحوزته سلاحٌ في يده، وعلى أيَّة حالٍ فقد بدت لي - آنذاك - فكرة العراك مع زملائنا من الجنود جريمة بشعة (ولكني أدركتُ أني كنتُ مخطئاً فيما بعد).

ولكن المشكلة الحقيقية بدأت عندما حلَّ الصباح، فوقتها أدركنا كم من الصَّعب علينا أن نبتسم في وجهي أوكينز وبيلشر ونحنُ نعرفُ ما نعرفه الآن. فقد أمضينا اليوم ونحنُ نتجوَّلُ في أنحاء المنزل دون أن ننبسَ بكلمة. ولم يكترث بيلشر لأمرنا كثيراً، فقد استلقى - كالعادة - أمامَ المدفأة وقد ارتسمت في عينيه نظرته المعتادة، وهي نظرة شخصٍ ينتظرُ بصبرٍ أن يحدث أمرٌ ما. إلا أنَّ أوكينز الصَّغير، من جهة أخرى، أرهقنا بأسئلته وسخريته الوقحَيْن، فقد كان مستاءً جداً من عدم ردِّ نوبل على تعليقاته المُستفزَّة. قال أوكينز: "لماذا لا يمكنك الدّفاع عن نفسك مثل الرجال، أيّها الرفيق؟ ألا تودّ الدفاع عن آدم وحواء؟ أنا شيوعيّ، ألا يمكنك الرد علي؟ أو قد أكون أناركياً. نعم، أنا أناركيّ". واستمرَّ أوكينز لساعاتٍ بالتجول في المنزل والثرثرة كلَّ قليل، قائلاً: "آدم وحواء! هاها، آدم وحواء!".

***

لا أذكرُ تحديداً كيف تجاوزنا ذلك اليوم، ولكنَّنا تجاوزناه بطريقة ما، وقد انتابتني راحة هائلة عندما حُمِلَت صينيَّة الشاي إلى المطبخ وقال لنا بيلشر بأسلوبه المعتاد: "حسناً يا رفاق، ماذا الآن؟". وعندها جلسنا جميعنا حول طاولة اللعب ووزَّع أوكينز البطاقات، ولكني سمعتُ في تلك اللحظة أصوات خطوات جيريمياه دونوفان في الخارج، فخيَّمت غيمة من الظلام على ذهني. نهضتُ من على الطاولة بهدوءٍ وفتحتُ الباب قبل أن يصل إليه جيريمياه، ومن ثمَّ قلتُ له: "ماذا تريد؟". فقال لي وقد احمرَّ وجهُه: "أريد هذين الجنديَّين، صديقكيما". سألتُه: "هل قُضيَ الأمرُ يا جيريمياه دونوفان؟". فأجاب: "نعم، قُضيَ الأمر. لقد فقدنا أربعة من رجالنا في الغرب اليوم، أحدهُم فتى في السادسة عشرة". فقلت: "هذا مؤسفٌ يا جيريمياه".

وفي تلك اللحظة تبعنا نوبل إلى الخارج، فبدأنا نتمشَّى معاً ونحنُ نتحدث همساً. ووجدنا عند بوابة المنزل ضابط الاستخبارات، واسمه فيني، واقفاً بانتظارنا. سألتُ جيريمياه دونوفان: "ماذا تنوي أن تفعل؟". "أريد منكَ وأن نوبل أن تخرجا السجينين. تستطيعُ أن تخبرهما أننا نريد نقلهما إلى مكانٍ جديد، فهذه أسهل طريقة". صاح نوبل فجأة: "لا أريد التورّط معكُم بهذا". وتأمَّله جيريمياه دونوفان لدقيقة أو اثنتين ثم أجابه: "لا بأس". ثم قال لي: "اذهب إلى السقيفة مع فيني واجلبا معكما بعض الأدوات لتحفرا بها حفرة في زاوية الحقل، وسنتبعكما أنا وبونابرت بعد عشرين دقيقة. ومهما فعلتما، يجب ألا يراكما أحدٌ وأنتما تحملان أدوات الحفر. لا يجبُ أن يعلم أحدٌ بهذه المسألة سوانا نحنُ الأربعة".

ووقفنا نراقبُ نوبل وفيني وهما يذهبان إلى السقيفة ليحضرا الأدوات، حتى دخلا إليها. وأما بعد ذلك فقد اكتفيتُ بتأمل كل شيء وهو يتداعى أمام عينيّ. إذ جلستُ على مقعد وراقبتُ جيريمياه دونوفان وهو يشرحُ الأوامر بأفضل أسلوبٍ أوتيه، دون أن أنبس ببنت شفة. وأخبر جيريمياه السَّجينين بأنهما سيعودان إلى الكتيبة الثانية، وعندما سمع أوكينز بالنبأ أطلق مجموعة من الشتائم، وأما بيلشر - ورغم أنه لم يقل شيئاً - فقد كان من الواضح أن قلقاً قد أصابه. أرادت صاحبة المنزل أن تبقيهما عندها رغماً عنا، ولم تتوقف عن الثرثرة حتى فقد جيريمياه دونوفان أعصابه وصاح فيها بكلام وقح. وكانت الشمس الآن قد غابت وخيَّم ظلام دامس على المنزل، إلا أن أحداً لم يكترث بإشعال الأنوار. ارتدى الرجلان الإنكليزيان ردائيهما الطويلين في الظلام وودَّعا صاحبة المنزل العجوز. وعندما خرجنا كان أوكينز يتمتم بلكنته الريفية قائلاً: "لا تكادُ تعتاد على العيش في واحدٍ من هذه المنازل المقيتة حتى يُقرّر ضابط في القيادة أن حياتك أصبحت يسيرة جداً، وأن

عليه أن يرميك في مكانٍ جديد". وأما بيلشر فقد صافحَ المرأة العجوز بحرارة وقال لها بأسلوبٍ مصطنع: "ألفُ شكرٍ أيها المدام، ألف شكر على كلّ شيء".

اتجهنا نحو الجانب الخلفي من المنزل، ثم نزلنا إلى الحقل المُمِيت. ومن ثمَّ أفصح جيريمياه دنونفان عمَّا كان يخبّئه في صدره بقوله: "لقد أطلق زملائكما الإنكليز النار هذا الصباح على أربعةٍ من جنودنا، لذا سيكونُ عليكما الآن أن تدفعا الثمن". قال أوكينز وقداحتدّ مزاجه: "لا تتفوَّه بهذا الهراء، يكفينا أنكم هزئتم بنا حتى الآن، فلا حاجة لإكمال التمثيلية". قال جيريمياه: "أنا أقول الصِّدق. اعذرني يا أوكينز، ولكني أقول الصِّدق"، وبعدها أخذ يُردّد ترَّهاته المعتادة عن إطاعة الأوامر وأداء واجبات الجنديَّة. قال أوكينز بغضب: "أوقف التمثيلية، أوقفها حالاً!".

ومن ثمَّ، عندما شعر جيريمياه دونوفان بأنهما لا يأخذانه على محمل الجدِّ استدار نحوي وقال: "يمكنكما أن تسألا بونابرت". قال أوكينز: "لا أحتاج لأن أسأل بونابرت، فأنا وبونابرت رفيقان". قال جيريمياه دونوفان لي بكآبة: "أليسَ ما أقوله صحيحاً يا بونابرت؟". قلتُ بتعاسة: "نعم، إنه صحيح". وعندها تجمَّد أوكينز وقال: "بحقّ المسيح..". قلتُ له: "أنا جادٌّ فيما قلتُهُ أيها الرفيق". قال أوكينز: "لا أشعر بأنك جاد فيه. أنتَ تعرف أنك لستَ جاداً". قال جيريمياه دونوفان: "لو لم يكن هو جاداً، فأنا جادّ". "لماذا بحقّ الجحيم ترغبُ بقتلي يا جيريمياه دونوفان؟". "ولماذا بحق الجحيم يرغبُ زملاؤك الإنكليز بإعدام أربعة من جنودنا بدمٍ بارد؟". وشعرتُ بأن جيريمياه دونوفان كان يحاول إقناع نفسه بكلماته بأن يقولها بحدَّة.

على أية حال، أمسك جيريمياه دونوفان بذراع أوكينز الصغير وجرَّهُ إلى الأمام، إلا أن أوكينز لم يكن ليقتنع بأننا نعني ما نفعله. ولك أن تتخيل كم كانت تلك اللحظات صعبة عليّ، إذ شرعتُ بدس يدي في حزامي وتحسّس مسدسي بينما أفكر بما سأفعلهُ لو أبدا السجينان مقاومة وحاولا الهرب منا، حيث تمنَّيتُ في أعماقي أن يقوما بذلك. وقد عرفتُ - على الأقل - أني لا يمكن أن أطلق النار عليهما لو حاولا الهرب. أراد أوكينز أن يعرفَ "إذا ما كان نوبل متورطاً معنا في هذا"، ورددنا عليه بالإيجاب. جعله ذلك يضحك. فلماذا يمكن أن يودَّ نوبل أن يقتله؟ لماذا يمكن أن نودَّ نحنُ أن نقتله؟ ألم نكُن رفقاءً، كما ذكرني بأسى؟ ألم نكن رفقاء؟ ألم يكن يفهمنا مثلما نحنُ نفهمه؟ هل كان أحدٌ منا ليتخيَّل، ولو للحظة واحدة، أننا قد نطلق النار على بعضنا بسبب الجيش والعسكرية والالتزام بالأوامر؟ وفي تلك اللحظة استطعتُ أن أرى، في النور الباهت المتبقي قبل الغسق، حافة الحقل الذي أعددنا فيه المثوى الأخير للسَّجينين، وانتباني حزنٌ عظيمٌ بحيث لم أستطع الإجابة على شيءٍ من كلمات أوكينز. مشينا حول حافة الحقل وسط الظلمة، وبين الفينة والأخرى كان أوكينز يتوقف قليلاً ثُمَّ يعود للكلام عن كيف أننا رفاق وزملاء، وكنتُ يائساً بحيثُ ظللتُ صامتاً وقررتُ أن أترك قبر أوكينز المفتوح والبارد يقنعه بأننا كُنّا جادِّين فيما نقومُ به. إلا أنَّ الأمر لم يصنع فارقاً، لو كنتَ تفهمني، إذا لم أكُن أرغبُ برؤية أحد منهما يموت.

***

رأينا، في نهاية المطاف، نوراً متقطِّعا لفانوس يأتي من بعيد فمشينا نحوه. كان نوبل يحمل الفانوس، بينما وقف فيني وراءه في الظلمة، ووقعَ مظهرهما وهما صامتان ووحيدان في الظلام الدَّامس مثل طعنة مميتة على قلبي. وعندما رأى بيلشر أن نوبل يقفُ أمامنا، حيَّاهُ بأسلوبه السلميِّ المعتاد قائلاً: "أهلاً يا رفيق"، إلا أنَّ أوكينز - من جهة أخرى - انفجرَ في وجهه على الفور، وأخذ مرة أخرى يكيل الشتائم على الدين المسيحي. ولكن نوبل لم يُجِب عليه بكلمة واحدة هذه المرة، بل ظل مُسمَّراً في مكانه وفانوسه يتراقص بين ساقيه.

إلا أنَّ جيريمياه دونوفان تولى الإجابة. كان أوكينز يسألُنا للمرة العشرين (إذ يبدو أن المسألة سيطرت على ذهنه) إذا ما كان بإمكانه أن يطلق النار على نوبل لو انعكست أماكنهما. قال جيريمياه دنونفان باختصار: "نعم، كنتَ ستطلق عليه". "لم أكُن لأطلق عليه، سحقاً لك!". "كنتَ ستفعلها لو علمتَ أنهم سيطلقون عليك أنتَ النار إذا رفضت". "لم أكن لأفعل ذلك ولو أطلقوا علي عشرين رصاصة متتالية، فهو رفيقي. وبيلشر أيضاً لم يكُن ليفعلها، أليس كذلك يا بيلشر؟". قال بيلشر بأسلوبه المسالم: "هذا صحيح أيها الرفيق". قال أوكينز: "سحقاً لي لو كنتُ لأفعلها. على أيّ حال، من يتحجَّجُ بأن نوبل

سيقتل لو لم يطلق عليَّ النار؟ ماذا تظنون أني كنتُ لأفعل لو كنتُ مكان نوبل، وكنا في حقل مهجور مثل هذا؟". "ماذا كنتَ لتفعل وقتها؟". "كنتُ لأذهب معه إلى أي مكانٍ يقرر الذهاب إليه. كنتُ لأقتسم معه آخر كسرة خبز لديّ، وأعيشَ معهُ وفقاً لمثل *الصديق وقت الضيق*".

قال جيريمياه دونوفان وهو يُعِدّ مسدسه: "كفانا من هذا. هل ثمة أي وصية ترغبانِ بقولها قبل أن أطلق النار؟". "لا، ليس لديّ، ولكن..". "هل ترغبُ بأن تتلو صلواتك؟". إلا أنَّ وجه أوكينز اصطبغ عندها بتعابير باردة صدمتي أنا نفسي، ومن ثم استدار نحو نوبل وقال: "اسمعني يا نوبل. أنا وأنتَ رفيقان. أعلم بأنك لن تأتي إلى جانبي، لذلك سآتي أنا إلى جانبك، أليس هذا عدلاً؟ أعطني سلاحاً فحسبُ وسأذهب وأقاتل معك بأي مكانٍ تريده".

لم يُجِب عليه أحد.

قال أوكينز: "هل تفهم؟ أنا مستعدّ للقيام بكل شيء. سأصبح متمرداً أو أياً ما كان الذي تشاؤه، وسأرافقك من الآن فصاعداً. هل هذا يكفي لأثبتَ لك أني جادٌ فيما أقول؟". رفع نوبل رأسه، إلا أنه عادَ وأخفضهُ بصمتٍ عندما بدأ جيريمياه بالكلام بصوتٍ بارد ومنفعل قائلاً: "سأسألُ للمرة الأخيرة، هل لديكما أي وصية قبل أن أطلق النار؟".

قال أوكينز: "هيا اخرس يا دونوفان، فأنتَ لا تفهمني، على عكس هؤلاء الرفاق. إنهم زملائي، فهُم يقفون إلى جانبي وأنا أقفُ إلى جانبهم. نحنُ لسنا محضَ بيادق للرأسمالية مثلما تظنُّ عنا".

لم يرَ أحدٌ سوايَ، من الموجودين، جيريمياه دونوفان وهو يرفعُ مسدسه ويوجّهه نحو رقبة أوكينز من الخلف، ووقتما رأيتُ ما يفعله أغضمتُ عينيَّ وحاولتُ أن أتلو دعاءً. وكان أوكينز يلفظُ عبارة جديدة عندما ضغط جيريمياه على الزّناد، ففتحتُ عينيَّ لأجد أوكينز يترنَّحُ على ركبتيه ومن ثم يسقطُ ويتمدَّدُ ببطءٍ عند قدمي نوبل، حيثُ أضاءَ نورُ الفانوس ساقيه النحيلتين وحذائيه الزراعيَّيْن اللامعين. وظللنا واقفين في أماكننا، مُتسمِّرين، ونحنُ نراقب آخر أنفاس الحياة تفارقُه.

وبعد أن رأى بيلشر المشهد أخرج بهدوءٍ منديلاً من جيبه وأخذ يوثقهُ حول عينيه (إذ أننا نسينا، مع انفعالنا، أن نُسدِي هذه الخدمة لأوكينز)، إلا أنه وجد أن المنديل لم يكن كبيراً بما يكفي ليحيط برأسه، فطلب مني أن أعيره منديلي. بدأ بيلشر بربطِ المنديلين معاً ليصنع عصابة لعينيه، وبينما هو يقومُ بذلك أشار بساقه نحو جُثّة أوكينز وقال: "لم يلفظ نفسهُ الأخير بعد، من الأفضل أن تطلقوا عليه مرة أخرى". وبالفعل، رأينا ركبة أوكينز اليسر ترتفعُ تحتَ ضوء الفانوس، فانحنيتُ إلى الأسفل ووضعتُ مسدسي على أذنه. ولكني تذكرتُ في تلك اللحظة أوقاتنا معهما، فنهضتُ لأقول بضع كلمات على عجل. فهم بيلشر ما أريد القيام به، فقال لي: "أطلق عليه النار أولاً، فلا أحد منا يعرفُ ما يعيشهُ ذلك المسكينُ الآن". وكنتُ حينئذٍ مجرداً من كل المشاعر والأحاسيس، فانحنيتُ مرة أخرى وأطلقتُ رصاصة ماهرة على أوكينز لأريحه من عذابه.

كان بيلشر، عندما أطلقتُ رصاصتي، لا يزالُ يحاول ربط المنديل فوق عينيه بغباء، وما إن سمع طلقتي حتى ضحك بصوتٍ عال. وسرت قشعريرة في بدني. فقد كانت أول مرة أسمعه يضحك، ناهيك عن أن الضحك لم يكُن مناسباً أبداً بعد لحظاتٍ من مقتل صديقه العزيز. قال بيلشر بهدوء: "يا لهُ من ثرثارٍ مسكين. في الأمس فقط كان يجادل بالحياة الآخرة. إنه لأمرٌ مدهشٌ يا رفاق، أنه باتَ يعرفُ الآن عن الحياة الآخرة كلَّ ما بإمكانه أن يعرفه، إلا أنه - في البارحة فقط - كان لا يزالُ جاهلاً بها تماماً".

ساعده جيريمياه دونوفان بإيثاق المنديل فوق عينيه. قال بيلشر: "شكراً يا رفيق". سأله جريمياه ما إذا كانت لديه أي وصية أخيرة يرغبُ بقولها، فقال: "لا أيها الرفيق، ليست عندي وصايا. لو كان أحدكم راغباً بإبلاغ والدة أوكينز بما حصل، فستجدُون عنوانها في رسالة بجيبه. وأما بالنسبة لي فقد رحلت عني زوجتي منذ ثماني سنوات. تركتني وفرّت مع رجلٍ آخر، وأخذت معها أطفالنا. أنا رجلٌ يحبّ الاستقرار (كما لاحظتم ربّما) ولكني لم أجِد لي مأوى منذ ذلك الحين".

ظللنا واقفين حوله مثل الحمقى، كونهُ لم يعد قادراً على رؤيتنا. رمقَ جيريمياه عيني نوبل بنظرة، فهزَّ ذاك رأسه. رفع جيريمياه مسدسه نحو بيلشر، إلا أنَّ بيلشر - في تلك اللحظة بالذات - انفجر مرَّة أخرى بضحكته الغريبة والعصبية. فلا بُدَّ أنه اعتقد أننا نتحدثُ عنه، وفي كل الأحوال، فقد جعلَ ذلك جيريمياه يُخْفِضُ سلاحه. قال بيلشر: "اعذروني يا رفاق، أشعرُ بأني أثرثرُ كثيراً.. وبغباءٍ شديد.. لكن هذه الأفكار تبادرت إليَّ الآن فجأة. أنا متأكد أنكم ستعذرونني". سأله جيريمياه دونوفان: "ألا ترغبُ بأن تتلوَ دعاءً أخيراً؟". أجاب: "لا يا رفيق، لا أعتقد أن الدعاء سيساعدني. أنا مستعدّ لو كنتَ ترغبُ بإنهاء الأمر". قال جيريمياه دونوفان: "أظنّك تفهمُ أن الخيار ليس بين أيدينا. فهذا واجبنا، كما تعلم". وعندها رفع بيلشر رأسه عالياً مثل رجلٍ ضرير، بحيثُ لم يعد الفانوس ينيرُ سوى ذقنه وأنفه، ثم قال: "لم أفهم ماهية الواجب قطّ، ولكن لو فهمتُ مقصدك، فيمكنني أن أؤكد لكَ أنكم رجالٌ طيبون. لن أتذمر ممَّا تقومُون به". وارتسمت ملامحُ اليأس على وجه نوبل، فأعطى إشارة لجيريمياه، ولم يستغرق الأمرُ سوى لحظة حتى رفعَ هذا مسدسه وأطلق النار. انهارَ جسد بيلشر الهائل على الأرض مثل كيس من الحبوب، ولم يحتج رصاصة ثانية مثل رفيقه.

لا أذكرُ عن دفنهما سوى أنه كان أسوأ من كلّ ما سبقه، وذلك لأننا اضطّررنا لحمل الجثتين الدافئتين عدة أمتارٍ قبل أن نضعهما في قبرهما. خيَّمَ عليَّ - أثناء كلّ ذلك - شعورٌ فظيع من الوحدة، إذ لم يكن يحمينا من الظلام الدامس المحيط بنا سوى نور الفانوس الباهت وصوتُ زقيق الطيور، التي أفزعتها طلقات الرصاص. تولّى نوبل البحث في جيب أوكينز عن رسالة والدته. ومن ثم، بعد أن انتهينا أنا ونوبل من إخفاء آثار القبر، حملنا معنا أغراضنا وودَّعنا زميلَيْنا ومن ثم مشينا على حافة الحقل المهجور لنعودَ أدراجنا إلى المنزل، دون أن ننبسَ بكلمة. وضعنا الأغراض في السقيفة أولاً، ثم دخلنا إلى المنزل. كان المطبخ لا يزال بارداً وغارقاً في الظلمة، مثلما تركناه، وأما المرأة العجوز فكانت جالسةٍ أمام الموقد وتدعو بمسبحتها. مشينا بجوارها ودخلنا إلى الغرفة، وتناول نوبل عود ثقابٍ ليشعل به المصباح. عندها نهضت من مكانها وجاءت إلينا بهدوء، وبدا أنها قد فقدت مزاجها المعتلّ والفظّ الذي اعتدناه.

قالت وكأنها تهمس: "ماذا فعلتُم بهما؟". وكان وقعُ كلماتها على نوبل شديداً بحيثُ انطفأ عود الثقاب في يديه المرتجفتين. سألها دونَ أن ينظر إليها: "ماذا قلتِ؟". قالت العجوز: "لقد سمعتُكم". سألها نوبل: "وماذا سمعتِ منا؟"، إلا أنَّ لهجته لم تكُن لتخدع طفلاً صغيراً. قالت العجوز: "لقد سمعتُكم. أتظنّ أني لم أسمعكما وأنتما تضعان الأغراض في السقيفة؟". أخرج نوبل عود ثقابٍ آخر، ونجحَ هذه المرة بإضاءة المصباح. قالت العجوز: "هل هذا ما فعلتوه بهما؟". ولم يُجِب نوبل عليها بشيء، فما الذي كان لديه ليقوله على أية حال؟

وبعدها نزلت المرأة العجوز على ركبتيها بجوارنا وأخذت تدعو بخرزات مسبحتها، وظللنا نراقبها لدقيقة أو اثنتين حتى ذهب نوبل وجلس على ركبتيه بجوار المدفأة، وأما أنا فقد اجتزتُ المرأة العجوز وخرجتُ من الباب، حيثُ وقفتُ في الهواء الطلق أنظرُ إلى النجوم وأستمعُ لزقيق العصافير اللعينة. تنتابُك في هذه اللحظات مشاعرُ غريبة جداً، لا يمكنك أن تكتبها قطّ. أخبرني نوبل أنه رأى - وقتها - كل شيء أكبر بعشر مرَّات من حجمه العادي، إذ لم يستطع أن يرى شيئاً أمامهُ سوى الرجلين الإنكليزيَّيْن وهما يحتضران بجوار الحقل المظلم. إلا أن الشعور بالنسبة لي كان معاكساً، إذ كنتُ أحسّ بأن الحقل الذي يرقدُ فيه الإنكليزيان الميّتان يبعدُ عنّي ألف ميل، بل وإن نوبل الذي يتمتم والمرأة العجوز التي تدعو والعصافير والنجوم كانوا - جميعاً - بعيدين عني جداً، وأما أنا فقد كنتُ ضئيلاً ووحيداً جداً. ولم أشعُر حيال أي شيء في حياتي، منذ ذلك الحين، كما كنتُ أشعر به فيما سبق.